

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المُدْرَك

Perception between the activity of the self...and the effect of the perceived object

مهبالى حميد¹، بن مقلّة ريشا²¹ البليلة 2 لونييسي علي (الجزائر)، hamidmehbali85@gmail.com² البليلة 2 لونييسي علي، r.benmokla@univ-blida2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/05/30 تاريخ القبول: 2023/09/01 تاريخ النشر: 2023/10/06

ملخص: إنّ المعرفة عمومًا سواءً كانت فلسفية أو علمية تتمثل في العلاقة بين الذات العارفة والموضوع الذي نقصد إلى إدراكه، فالموضوع المُدْرَك هو واقع منفصل عن الذات، وتمثل الذات له هو ما يطلق عليه معرفة، فلا إدراك من دون ذات مُدْرَكَة وموضوع مُدْرَك، هذه حقيقة يكاد يتفق عليها كل العقلاء، لكن قضية المصدر أثارت الكثير من السجال منذ القديم، ولعلّ بحثنا حاول إضاءة بعض المناطق المعتمدة حول إشكالية شغلت أرباب الفكر لقرون عديدة وما زالت تُثير النقاش في مختلف السياقات وقد ظهر لنا بعد الإدلاء بدلونا في هذه القضية السجالية أنّ مشكلة الفكر البشري هو في المنطلقات اللاواعية والمضمرة التي تجعل موضوعًا ما في مركز الاهتمام في حين تجد قضية أخرى في دائرة الظل، وهذا عين ما حصل في قضية الإدراك بين الذات والموضوع، فقد ظلت الذات هي المركز والمحور في حين بقي دور الموضوع في الهامش يحوم النظار حول أعتابه ولا يطرّقه.

كلمات مفتاحية: الذات، الموضوع، الإدراك، المعرفة، الجشطالت

Abstract: Knowledge in general, whether it is philosophical or scientific, is represented in the relationship between the knowing subject and the subject that we intend to comprehend, so the perceived object is a separate reality from the self, and the self's

representation of it is what is called knowledge, so there is no comprehension without the perceiving subject and the perceiving subject, this is a fact that almost agrees All sane people have it, but the issue of the source has raised a lot of controversy since ancient times, and perhaps our research tried to illuminate some dark areas around a problem that has occupied the masters of thought for many centuries and is still sparking discussion in various contexts. The unconscious and implicit premises that make a subject in the center of attention while finding another issue in the circle of shadows, and this is exactly what happened in the issue of perception between the subject and the subject, as the subject remained the center and the axis, while the role of the subject remained in the margins, the spectators hovering around its threshold and not knocking on it.

Keywords: subject, object, perception, knowledge, gestalt

*المؤلف المرسل: ريشا بن مقلة

1. مقدمة

لقد كان موضوع الادراك وقضية مصدر المعرفة من القضايا والمواضيع المبكرة التي استثارت الفكر البشري ، فذهب فيها كل مذهبٍ محاولاً اكتناه حقيقتها وماهيتها وطبيعتها ومصادرها ، ولأنّ الذات هي المعني الأول بقضية الإدراك والمعرفة فقد بدت للوهلة الأولى أنّها هي الفاعل الحقيقي لعملية تمثّل الواقع ومفرداته ، وبدا العالم الخارجي بموضوعاته والأشياء المحيطة بالذات مُجرد حقائق وصور سالبةً ومجرد مفعولاتٍ لا أثر لها مادامت مجردةً من الإرادة والحرية في نظر معظم الاتجاهات والزعات والمذاهب الفكرية والفلسفية التي اضطلعت بالتأمل والتدبر في قضايا المعرفة والإدراك واشتغلت عليها، بل ذهب البعض إلى إنكار الوجود الموضوعي والحقيقي للعالم الخارجي وللواقع واعتبره مجرد وهم لا حقيقة له، ولذلك لا يستغرب الناظر في تاريخ الفكر البشري حين نجد ذلك

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المدرك

التمركز حول الذات في كل المراحل التاريخية واعتبارها المركز والمرجع والمصدر والأساس، فكل السجلات الفكرية بين المذاهب الفلسفية كانت تدور في نطاق الذات والخلاف والجدل كان حول العوامل الذاتية التي لها الأثر الأكبر في عملية الإدراك وتمثل الواقع أو في عملية تولّد المعرفة ، في حين بقي أثر الموضوعات المدركة ودورها في عملية الإدراك من القضايا اللامفكر فيها ، فقد استأثرت الذات بكل الاهتمام وأخذت من اهتمام الفلاسفة والمفكرين الشيء الكثير والوقت الطويل ، صحيح أنّ العالم الخارجي بموضوعاته ومفرداته كان مبعث الدهشة ومصدر التفلسف والباعث والحافز الأوّل على التدبر والتفكير والتأمل لكن سرعان ما عاد الانسان إلى ذاته يُحاول معرفة حقيقتها وماهيتها وعلاقتها بهذا العالم والواقع ، فاعتقد أنّها هي الأصل والأساس وأنّها هي المتن ، والواقع بمفرداته وأشياءه هو الفرع والهامش، فلولا الذات لم يكن لهذا العالم معنى ، فالذات هي التي تُعطي وتمنح له من المعاني والدلالات ما يجعله ذا جدوى وذا قيمة، فلا وجود من وجود الذات ولا معرفة من دون ذات عارفة ولا إدراك من دون ذات مدركة، هذا التمرکز حول الذات لم تسلم منه حتّى العقول الجبارة بحيث كان الذات هي بوصلة التفكير فكل القضايا والاشكالات التي أثّرت وطُرحت كان مبعثها الافتراض بمركزية الذات، في حينَ مورس الحجب والتغيب والاقصاء على أثر ودور وتأثير الموضوع في عملية الإدراك والمعرفة ، وتأخر هذا الاقصاء والاستبعاد إلى بداية القرن العشرين حتّى ظهور مدرسة الجشطالت التي أثّرت قضية تأثير الموضوع ودوره المحوري في عملية الإدراك والتعلم وقد جاء ذلك في سياق ثورتها على علم النفس في تلك الحقبة وبالتحديد ثورتها على بعض المدارس النفسية كالمدرسة الارتباطية والمدرسة السلوكية ، فإلى أيّ حدّ استطاعت هذه المدرسة إعادة بعث الجدل والسجال حول قضايا الإدراك والمعرفة؟ وما الذي جعل تأثير ودور الموضوع في عملية الإدراك من ضمن القضايا اللامفكر فيها كل هذه الفترة؟

وهل استطاعت نظرية الجشطت نقل الاشكال من سياقه العلمي إلى الفضاء الفلسفي؟ سنحاول في هذه الورقة البحثية عمل حفريات حول هذه المفردات التي شغلت الفكر البشري منذ فجر الفلسفة إلى يوم الناس هذا.

2. الادراك والتمركز حول الذات الفاعلة: لعلّ من الأمور التي تُحسب لمدرسة الجشطت والتي مازالت تحتاج إلى مزيدٍ من العناية والاضاءة هي توضيحها وبيانها لدور العوامل الموضوعية في عملية المعرفة والادراك ، وهي بذلك قد أعادت إذكاء - وبشكلٍ غير مسبوقٍ - جذوة الجدل والنقاش الذي اعتقد البعض أنّ "الفيلسوف" الألماني" ايمانويل كانط قد أنهاه بعد النقاشات الحامية التي امتدت بين أنصار العقل وغرمائهم من أنصار الحس والذي امتد من مطلع القرن السادس عشر حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، هذا الجدل الذي يبدو أنه يتكرر في كل الانعطافات الفكرية والحضارية الكبرى، فالجدل والنقاش القوي الذي أعقب عصر النهضة والأسئلة الكبرى التي طُرحت في أعقابها والاشكالات التي أُثيرت عقبه تشي كلّها عن التأثير الكبير والقوي لمخيل ذلك العصر، كما يعكس صورة التفاضل التي كانت سائدة في أوساط نُخب ذلك العصر وعن التطلعات العظيمة التي كان يرنو إليها مفكري تلك الحقبة ، وقد شكّلت هذه الحالة من المشاعر الايجابية دافعاً قويا ومحركاً فعالاً للتجراً على أسئلة ومباحث واشكالات لم تكن لتحدث لولا حالة التفاضل السائدة والتطلعات الواعدة التي كانت تحدو رواد ذلك العصر ، هذا الجو هو الذي خلّف لنا ذلك الجدل المديد والطويل الذي حدث بين مذهبين كبيرين في الفلسفة المذهب العقلي والمذهبي التجريبي.

فقد استطاعا هذين المذهبين أن يؤطّرا كل النقاشات والحوارات والسجلات لمدة تنيفُ عن القرنين ، بحيث لم يستطع كل مفكري تلك المرحلة أن يُفلتا من إسارِ هاتين النزعتين وقد كانت النقاشات بينهما دولاً مرة تميل لهذا

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المدرك

وفي أخرى تميل للمذهب الآخر حتى ظُنَّ في لحظاتٍ تاريخية ما أنَّ الأمور قد حُسِّمت لهذا المذهب أو ذاك، فما هي إلَّا أنَّ يُسَعَفَه التاريخ بمريدٍ آخر/ زعيم ، فيبعث فيه دماء الحياة ويحتدم النقاش من جديد ، واستمر الوضع والحال بين المذهبين هكذا وكأنهما فرسي رهان ، حتَّى جاء كانط الذي لم يسلم في بدايات عهده بالفلسفة من التعصب لأحدهما دون الآخر ، لكن مع استوائه ونضجه واشتداد عضده في مجال الفكر والفلسفة شرع في أخذ مسافة من كلا الموقفين وأعاد صياغة الأسئلة الحقيقية ، فعَوَّض أن يبحث في مصدر المعرفة ووسائلها أخذ يبحث في حدود تلك الوسائل أولاً فأعاد بذلك توجيه النظر والمقاصد ، بل أعاد ترتيب الأولويات ، ولعلَّ مسلك كانط قد خلَّص الفلسفة ومريديها من مأزق الاختيار بين وسيلة من الوسيلتين اللتين وضع فيه العقليون والتجريبيون كل مريدي وطالبي الفلسفة في تلك الحقبة ، (وكأنما هو محالٌّ على الوسيلتين أنَّ تجتمعا معاً في تحصيل المعرفة ، فجاء كانط بمذهبه النقدي ليقرر أنَّ المعرفة لا تتم إلَّا بالخبرة الحسيَّة والمبادئ العقلية معاً) (محمود، 2017، صفحة 49)، فكانط بعمله هذا قد أنهى حقبةً من الجدل الواحدي أو التفسير بالعامل الواحد الذي ميَّز تلك الحقبة وما قبلها ، وهو بهذا قد فتح المجال لأشكالٍ وصور أخرى وجديدة من أنماط التفكير وأنواع النظر، لكن يبدو أنَّ كانط نفسه لم يسلم من إसार الذات ولم يتحرر من قيود الكهف وأوهام السوق فقد ظل يدور في فلك الذات لا يختلف في ذلك عن الحسيَّين والعقليين فلم يزد عمله أنَّ لَقَّ بين وسيلتين ذاتيين ، ولعلَّ تأثير المثالية الأفلاطونية كان أرسخ وأعمل في فلسفة كانط من تأثير تلميذه أرسطو ، فقد بقي الموضوع من الاشكالات والأمور اللائمة في فلسفة فيها وخاصة فيما يتعلق بمبحث المعرفة والإدراك وظل النقاش منذ بدايات الفلسفة يتخذ من الذات محوراً لكل عملية تفكير وبقي تأثير الموضوع ودوره بعيد عن مجال التفكير وكأنه مجرد خيالٍ أو وهمٍ لا وجود له بلَّة عن

تأثيره وتأطيره لعملية التجريد والادراك والتصور ، ولعلنا هنا نرجع إلى المؤسسين الأوائل وعمل حفريات من أجل تتبع عملية التغطية والاستبعاد التي مُورست في حق الموضوع لصالح الذات التي استأثرت بكل كل هذه الحقبة الزمنية من تاريخ الفكر والتدبر.

3. سقراطوتوليد الأفكار من الذات لعلّ الشذرات التي خلفها الشيخ سقراط بقيت تفعل مفعولها في الفلسفات اللاحقة وخصوصًا فيما يتعلق بمبثي الوجود والمعرفة ، فسقراط الذي جعل من الذات منبع ومبعث المعارف يكون بذلك قد حسم بشكل قاطع الأمر لصالحها مُقابل الموضوع ، ففي نظره يكفي تعلم طرق ومناهج ومسالك توليد المعرفة لتفيض الذات بالحقائق والمعارف، فقد كان همه دلالة مريديه على كيفية توليد المعارف من الذات، أما مفردات الواقع فلم تعن له شيئًا، فمادامت الذات مكتفية بذاتها فإمكان المعرفة وارد وقابل للتحقق ، انحياز أفلاطون للعقل كان واضحًا خاصة وأَنّه جاء في سياق مقارعة السوفسطائيين الذين انحازوا للحواس واعتبروها مصدر المعارف والمدارك قاطبة ، هنا انتفض سقراط ومن بعده تلميذه الوفي أفلاطون ورافعوا لصالح العقل، ويبدو أنّ مزاج سقراط وحرصه على الظهور بمظهر الحكيم المتواضع وكذا وفاءً منه لخطه السلوكي الذي ظهر به وأعلنه في الملاء أنّه لا يعرف إلّا أنّه لا يعرف شيئًا لم يُعط المزيد من الايضاح ولم يُبَيّن أكثر عن حقيقة هذه الكليات ولا عن مصدرها ومنابعها إلّا أنّها موجودةٌ وجودًا قبليًا في النفس وما على الانسان إلّا الانصات إلى دواخله والرجوع إلى ذاته لمعرفة ما هو بهذا قد أحدثَ قطيعةً مع الواقع وموضوعاته ومارس المزيد من الحجب والتغطية للموضوع وصرفَ الأنظار عنه وذلك بتغييبه وإهماله فصار من المستحيل التفكير فيه على الأقل في تلك الحقبة التاريخية ، وهو ما يظهر جليًا في فلسفة تلميذه اللامع أفلاطون الذي يبدو أنّه أكمل ما بدأه سقراط فاذا كان سقراط قد قال بالكليات ولم يوضّح لنا من أين جاءت ، ولم

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المدرك

يقول لنا شيئاً عن مصادرها وهو ما أضفى نوعاً من الغموض على فلسفة سقراط ، فإنّ أفلاطون قد أكمل المهمة وأسهب في تبيان مصادر هذه الكليات التي تنطوي عليها النفس، لكنّ كمية الحجب والاقصاء للواقع وموضوعاته التي قام بها أفلاطون لم يسبقه إليها أحدٌ ، فقد استكثر أفلاطون على الواقع أن يكون هو المبتدأ والمنطلق والأرضية نحو الكليات ، صحيح أنّه في فكرته حول الجدل الصاعد والنازل جعل الواقع ومفرداته وجزئياته هي مُنطلق ومبتدأ عملية التجريد ، لكنّه بنسبته المفاهيم الكلية إلى عالم مفارق قد قوّض فكرته عن التجريد وعن الجدل الصاعد والنازل من أساسها ، وما هذا إلّا لاقصائه وإهماله لأثر الموضوعات أو بالأحرى أثر العوامل الموضوعية في عملية الإدراك والمعرفة.

3. أفلاطون .. بين عالمين : " يرى أفلاطون أن عالم الأشياء الحسية ليس بالعالم الحقيقي، ذلك أنّ الأشياء المحسوسة في تغير وحركة دائمين، تنشأ وتفسد، ولا تحتوي على أي شيء يقيني وثابت، أما الماهية الحقيقية للأشياء الحسية، وعلتها، فصور مفارقة، بريئة من المادة، لا محسوسة، تدرك بالعقل فقط، يسميها الفيلسوف "الأفكار" أو "المثل"، ولكل صنف من المحسوسات هناك - في عالم ما فوق الحس - "فكرة" أو "مثال" يقابله وهذه "المثل" هي علة المحسوسات والنموذج Model الذي صنعت عليه، والغاية التي تنزع إليها والمفهوم الذي يعبر عن الأساس العام لأشياء كل صنف" (جماعة من الاساتذة، 1979، صفحة 96).

كان "أفلاطون يقسم الواقع إلى قسمين: الأول مُشكّل من عالم الحس الذي يعطينا معرفة تقريبية، وغير كاملة، أمّا القسم الثاني، فهو مكون من عالم الأفكار الذي يسمح لنا بالوصول إلى المعرفة الحقيقية، عن طريق استعمال العقل، لأنّ عالم الأفكار هذا، هو عالم مُستعصٍ على الحواس، وبالتالي فإنّ الأفكار - أو المثل - هي أزلية وثابتة، فكل الظواهر الطبيعية عند أفلاطون ليست إلّا ظلال الأشكال أو الأفكار الأبدية" (غاردر، ب س، صفحة 97).

نرى هنا أنَّ أفلاطون قد استبعد تمامًا أو بالأحرى قد ألغى الموضوع من حسابه وهو بذلك قد حسم الأمر لصالح الذات ، فالمدارك والمعارف عنده هي حقائقٌ مفارقةٌ للواقع فهي تُشبه الوحي المنزل إنَّ صحَّ التعبير ، فلا علاقة لها بالواقع الذي نعيشه بل إنَّ الواقع هو تمثيلٌ غير نموذجي وغير مطابق للحقائق والصور المطلقة ، فلا فاعلية له ولا دخل له من قريبٍ ولا من بعيد بعملية التمثيل أو التجريد ولا بعمليات من قبيل التعميم ، ومن هنا قطع أفلاطون الطريق على نفسه وعلى مَنْ تأثر بفلسفته في التفكير في الموضوعات كقواعد ومؤثراتٍ ، هذه الرؤية الأفلاطونية التي تستبعد الواقع والموضوع تماما من عملية المعرفة والإدراك بقيت تعمل في الحقب اللاحقة كافتراضات ومنطلقات مضمرة ولواعية في الفكر البشري وقد رأينا ذلك في فلسفة كانط وغيره من الفلاسفة ، ولم يستطع أن يُفلت منها كل الفلاسفة والمفكرين عبر التاريخ البشري بحيث بقي لها تأثير السحر أو المخدر الذي يجعل العقل يذهل عن الحقائق الواضحة والبيّنة ويستمر في المكابرة والانكار ، أمّا الالتماعات التي كانت تظهر بين الفينة والأخرى من التاريخ الانسان فهي بزوالها واندثارها بسرعة تؤكد القاعدة والعرف السائد والراسخ الذي ثبته أفلاطون عبر نظرية المثل، وفصل الذات عن الموضوع لم يكن الأمر الوحيد الذي امتاز به أفلاطون بل إنَّ فكرة ثنائية الجسد والروح التي رسّخها أفلاطون في كل الفلسفات اللاحقة ، لم يستطع الفكر البشري لاحقًا القطيعة معها وبقيت تُؤطر وتوجّه عملية التفكير عند كل الفلاسفة في كل العصور ، بل إنَّنا نجد فيلسوفًا كأرسطو تلميذ أفلاطون الذي حاول الخروج من عباءة شيخه بقي يدورُ في فلك الذات، بحيث بقيت الذات هي المرجع وهي المحور في عملية ادراكنا وتمثلنا ومعرفتنا ، في حين ظل تأثير الموضوع من الاشكالات اللامفكر فيها.

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المُدرَك

4. أرسطو... من الفلسفة ... إلى العلم: لا نعدو الحقيقة إن قلنا إنَّ أرسطو كان بمثابة البوصلة لكل الفلسفات والمذاهب والنزعات والأديان بعده ، ويبدو أنَّ الصرامة الفكرية التي كان يتحلَّى بها ويأخذ بها نفسه في كل القضايا التي عالِجها أو خاض فيها هي السر وراء الإعجاب الكبير الذي ناله هذا الرجل ، فقد كان أرسطو أقرب إلى العالم منه إلى الفيلسوف ، " والواقع أنَّ العقل اليوناني كان في حالة من الفوضى وعدم النظام إلى أن قَدِم أرسطو " (ديورانت، 1988، صفحة 78)، وأبدع ذلك العلم العظيم " علم المنطق " وجعله معيارًا لكل المعارف والحقائق والعلوم ، وهو الأمر الذي يشي ويكشف عن عقلية هذا الفيلسوف / العالم ، هذه العقلية المعيارية هي التي جعلته يتخذ موقفًا نقديًا نحو أستاذه أفلاطون ، بل إنَّ العلاقة بينهما كان قد شابهها الكثير من التوتر والتشنج في السنين الأخيرة لتتلمذه لأفلاطون ، فقد سخر من فكرة عالم المثل التي أطنب في بيانها وشرحها الأستاذ أفلاطون ، معتبر إياه- أي أرسطو- مجرد وهمٍ بل جهلٌ محض ناتج عن سوء فهم لعملية التجريد التي تنطلق من جزئيات الواقع ومفرداته لتصل إلى الدُّرَّة عبر تشكُّل المفاهيم الكلية التي تنطبق بدورها على كل الجزئيات وتشملها جميعًا، هذه العملية أدائها ووسيلتها هما العقل والحواس ، وهنا بعد أن كاد أرسطو يضع يده على الحقيقة ويُعطي للموضوعات ما ينبغي أن يُعطى لها ، هاهو ينتكس كغيره من الفلاسفة فيعود ويتمحور حول الذات معتبرًا الواقع بموضوعاته مجرد مفعولٍ به لا فاعل في عملية الإدراك والمعرفة ، وهو ما أدى لاحقًا إلى إغلاق كل بابٍ للتفكير في الموضوعات وإثارة الأسئلة والأشكالات حولها ، وهو الأمر الذي حدث فعلاً فقد أصبحت فلسفة أرسطو وأستاذه أفلاطون وقبلهما سقراط مجرد مقررات مدرسية في الحقبة التي سيطر وساد فيها الدين المسيحي ومن بعده الدين الإسلامي وتوقف العقل البشري تقريبًا عن طرح الأسئلة الحقيقية حول هذا النوع من القضايا ، بل تحولت الفلسفة إلى مجرد وسيلة أو

أداة خادمة للديانات والعقائد، بل قُلْ إِنَّ الفِلسفة نفسها تحولت إلى عقائد تُعقد لها الولاءات ، لا فرق في ذلك بينها وبين الدين.

واستمر الوضع على حاله حتى جاء عصر النهضة الأوروبية فأعاد الروح إلى جسد الفلسفة الذي جُردت منها بفعل رجال الكنيسة وأتباعها ، فانطلقت الفلسفة من جديد تشق طريقها تُسندها في ذلك النزعة التجريبية التي سادت في بدايات القرن السادس عشر، وخاصة التحولات الكبرى والانقلابات الخطيرة في التصورات والمفاهيم التي أحدثها الثورات العلمية وخاصة فيزياء غاليلي وفرنسيس بيكون، الفتوحات العلمية التي تَلَتْ عصر النهضة بدأت في تقويض النهج السكولائي التقليدي الذي رسخته التيارات الدينية للكنيسة والتي كانت تنطلق من الاعتقاد بأن كل شيء معطى، وأن الإنسان مجرد متلقي سلبي، لا دور له في عملية إنتاج المعرفة ، هذا التصور اللاهوتي الغارق في القدرية الذي جعل من فلسفة أرسطو ومنطقه سندا صنميا لا مجال للشك فيه، أخذ بالتراجع شيئا فشيئا لصالح النزعة الانسانية التي خاضت حرباً ضروساً مع الكنيسة ودفعت الكثير من التضحيات في سبيل إعادة الدور المحوري للذات الانسانية كذاتٍ قادرة على إنتاج المعرفة وبنائها ، وهنا بدأت تتشكل معالم جديدة وتصورات حديثة حول المعرفة والقضايا المتعلقة بها مُقابل تراجع التصورات الكلاسيكية المرتبطة أساسا بفلسفة أرسطو ومنطقه الشكلي والصوري العقيم، وهنا كانت الحاجة ماسة لظهور رموز فكرية وفلسفية وعلمية جديدة، وهذا ما حدث فقد كانت اشكالية الأداة المناسبة للمعرفة الجديدة محور كل النقاشات والجدالات في هذا العصر ، الأمر الذي أدّى إلى بروز تيارين فكريين كبيرين تمثلتا في المذهب العقلي والمذهب الحسي التجريبي استحوذا على كل النقاشات خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر وحتى النصف الأول من القرن السادس عشر.

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المدرك

5. المذهب العقلي والمذهب التجريبي ..رؤى كونية جديدة: لعلّ الارهاصات والبوادر الأولى للفلسفة الحديثة بدأت " بانشقاق ديكارت- اليسوعي- عن المدرسية وعن "الأفلاطونية" (برنتن، 2017، صفحة 353)، وتأسيسه لتصور ميتافيزيقي جديد للعالم والوجود والذات الانسانية ، بحيث رسم ديكارت تصوره الميتافيزيقي للعالم في كتابين هامين، من ضمن كتبه: كتاب مقال في المنهج، وكتاب التأملات الميتافيزيقية، وقد اشتهر ديكارت بقوله المتداول جدا «أنا أشك، أنا أفكر، إذن أنا موجود». وهو قول يؤسس لفهم جديد للذات الإنسانية، من خلال سعيه نحو قلب النظام المعرفي القديم، لصالح تصور جديد ينبنى على الذاتية كمنطلق نحو العالم. والذاتية عند ديكارت، لا ينبغي أن تفهم كمقابل للموضوعية، بل كأساس ومبدأ كل شيء، بإمكانها الوصول إلى اليقين، بدلا من البحث عنه في شيء آخر. والغاية الكبرى لديكارت وراء هذا المفهوم هي التأسيس لميتافيزيقا جديدة تتمحور حول الإنسان كأسى كائن ميتافيزيقي. فالحقيقة لا تقع خارج الذات الإنسانية بل في جوفها وفي قلبها، وهذا ما تستدعيه العلوم الحديثة التي تنطلق مع ميكانيك غاليلو غاليلي وفلك كوبرنيك، حيث لم يعد الكون فراغا تحكمه قوانين عمياء، كما لم يعد فضاء لا متناهيا. بل إن العلاقة بين الأجسام علاقة ميكانيكية (العلاقة بين السرعة والقوة).

لقد كانت الحاجة إلى ديكارت في زمانه، حاجة إلى أسس جديدة (ميتافيزيقية وفلسفية) للعلم الحديث. ففي الوقت الذي ظلت فيه الميتافيزيقا الأرسطية سائدة بتحجرها وعقم مناهجها وتشعب استدلالاتها وقياساتها المنطقية، سعت العقلانية الديكارتية نحو البساطة والوضوح، نحو رسم منهج وقواعد جديدة لإرشاد العقل، لأن بإمكان هذا العقل أن ينتج المعرفة، وهو الأمر الذي يرفضه السكولائيون لن يدوم كثيرا، لأنه سيتعرض لانتقادات ديكارت من أجل تقويضه. وبذلك، فالديكارتية هي بمثابة «بيان من أجل العقلانية»، «بيان

من أجل العقل» دشّن مرحلة جديدة محورها العقل والذات الإنسانية. بيان يقوم أولاً، على الإقرار بالمساواة والعدل في توزيع القدرات. فتقريره أن «العقل أعدل قسمة بين الناس»، هو تقرير بأولى مبادئ الديمقراطية أي المساواة، وأمام هذا المبدأ، لم تعد الحاجة إلى تقرير التراتبية أو ما شابه، لأنه حطم وقوض الأساس الذي تقوم عليه المعرفة التقليدية.

وهكذا سار يبحث عن منهج جديد لهدم الآراء القديمة وبناء آراء جديدة. وبهذا سيتوجه بالنقد الشديد لمختلف المعارف التي تلقاها منذ طفولته، بل سيطرّحها جانباً وسينطلق من الشك.

لاحظ ديكارت أن معظم أحكامنا ترتبط بالحس وتتعلق به. وأن معارفنا تتكون من آراء تتعارض فيما بينها. وهذا ما يستوجب أولاً الشك فيها، ولو مرة واحدة، بهدف السعي وراء بناء معارف جديدة كل الجدة. فالحواس في نظره مخادعة، بحيث لا يستطيع التمييز بين عالم الحلم وعالم اليقظة. وهذا ما يستوجب ثانياً الشك فيها (رشيد، 2016)، شك ديكارت في الحواس وثقته العمياء في العقل كان المنطلق لسجال فكري وفلسفي دام بعد ذلك لمدة قرنين كاملين فأراء ديكارت وأفكاره لم تجلب نقمة اللاهوتيين فقط بل جلبت له نقداً لم ينته بموته بل استمر إلى العصر الحديث، حيث انتفض أصحاب النزعة الحسية التجريبية ورافعوا طويلاً لصالح الحواس وخاصة مع " جون لوك " زعيم المذهب التجريبي وأحد رواده الذي ترك أثراً كبيراً في الفكر الحديث وشكّل تياراً مضاداً لنزعة ديكارت العقلانية ثم توالى الاصطفافات والسجلات بين أنصار وأتباع النزعتين كلما هلك زعيم خلفه زعيم ينافح ويدافع عن إحدى النزعتين فقد رأينا سبينوزا ولبنتز وباركلي وديفيد هيوم كل واحد منهما خاض بما أُتيح له في هذه الحرب السجالية منتصراً للعقل أو للحواس ، ولاشك أنه كان لهذه السجلات دور كبير في حركة التاريخ وفي تطور وتقدم الفكر البشري خطوات عظيمة إلى الأمام ،

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المدرك

لكن ما يلاحظ على هذين النزعتين أنهما ظلَّتَا في إطار الذات لم تخرجا عنها ، هذا من جهة ومن جهة ثانية بقيتَا في إसार التفسير الواحدي ولم تستطيعا التخلص من هذا المسلك الاختزالي الواحدي وهذا كله نتيجة الرواسب المضمرة من آثار الفكر القديم فقد بقيتْ هذه الافتراضات المضمرة بعيدة عن التفكير فيها وإخراجها إلى مجال الضوء ووضعها تحت مشارط ومباضع النقد والتشريح، لكن ما يُحسب لهذين التيارين أنهما أعادا للذات الانسانية دورها وقيمتها في عملية المعرفة فأصبحت فاعلا ومنتجا حقيقيا للمعارف والأفكار وليست مجرد مستقبلٍ سلبي أو مجرد مستهلك للمعارف الماورائية واللاهوتية ، هذا السجال بلغ ذروته مع نهايات النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع ظهور فيلسوف ألماني عظيم "ايمانويل كانط" الذي اتخذ موقفاً نقدياً من كلا النزعتين مُعتبراً كل السجلات التي جرت بين التيارين مجرد فذلِكَاتٍ وشكلياتٍ وانحيازات عاطفية لا علاقة لها بقضايا المعرفة ومشكلاتها ، وَصَفُ فلسفة كانط بأنها نقدية معناه تحليل المعرفة تحليلًا ينتهي إلى استخراج الأصول والمبادئ والافتراضات التي تقوم عليها، وهو عين ما قام به كانط حيث قام بمحاولة معرفة الأصول المنطقية الكامنة وراء مختلف المعارف الانسانية وحدودها وامكاناتها وذلك برد كل تلك المبادئ والمنطلقات إلى أقل عددٍ ممكن الأصول بحيث تشكل الاطار الذي تصب فيه كل المعارف ، وقد أطلق عليها اسم " المقولات " " والفرق الجوهرى بين المقولة وما يُصَبَّ فيها من معرفة، هو أنَّ الأولى عقلية تكون في طبيعة الإنسان قبل الخبرة ، وأمَّا الثَّانية فتأتي بعد الخبرة، أي أنَّ القالب نظري والحشو مُكتسبٌ ، وقد كانت هذه المحاولة التي قام بها " كانط" في كتابه المشهور "نقد العقل الخالص"، إذ أراد أن يُقيم البرهان على أنه على الرغم من أنَّ معرفة الإنسان يستحيل أن تُجاوز حدود خبرته الحسيَّة إلا أنَّ هذه الخبرة الحسية نفسها لا بد لها

من إطارات أو قوالب تكون فطرية في طبيعة العقل لتتشكل الخبرة الحسية على غرارها " (محمود، 2017، صفحة 50).

وقد خلّص " كانط " إلى أنّه لا شيء من معارفنا يُمكن أن يتعالى على التجربة، لكن التجربة المستمدة من العالم الخارجي تُشكل مادة الاحساس فقط، وجهازنا العقلي هو من يُنظّم هذه المادة في المكان والزمان ، ويزوّدنا بالتصورات التي بواسطتها نفهم التجربة ، فالأشياء في ذاتها التي تُسبّب إحساساتنا حسب " كانط " لا سبيل إلى معرفتها، فهي ليست في مكانٍ أو زمانٍ، وهي ليست جواهر، كما لا يُمكن وصفها بأي من تلك التصورات العامة الأخرى التي يدعوها كانط "مقولات"، فالمكان والزمان ذاتيان، وهما جزءٌ من جهاز الإدراك لدينا (راسل، 2018، صفحة 215).

المتأمل لفلسفة " كانط " يصل في النهاية إلى خلاصة مفادها أنّ العمل الذي قام به " كانط " لم يكن إلّا تلفيقًا بين النزعتين التجريبية والعقلية ، صحيح أنّه تجاوز مسلك التفسير بالعامل الواحدي ، وصحيح أيضًا أنّه جعل النقد والتحليل من أهم أدوات بناء المعرفة وبذلك أخرج الجدل والسجال من إطاره العاطفي إلى إطارٍ موضوعي، لكن ومع ذلك ظلّ منحازًا للذات على حساب الواقع وموضوعاته، فهو وإن كان يعزو الموضوعات المباشرة للإدراك في جزءٍ منها للأشياء الخارجية ، فإنّه أعطى التأثير الأكبر لجهازنا الإدراكي فهو مثل " لوك " جعل الكيفيات الثانوية (الألوان، الأصوات، الروائح) ذاتية لا تنتمي للموضوع، فالحواس في نظرديكارت لا يزيد عملها على نقل المعطيات الحسية بطريقة مشتتة وغير منظمة إلى الذات، وبعد ذلك يتدخل العقل عبر قوالبه ومقولاته في إعادة ترتيب وتنظيم المعطيات الحسية ومن ثمّ تأويلها وتفسيرها ، والمعطيات الحسية من دون مقولات العقل لا معنى لها، فالحواس بدون العقل مجرد آلات عمياء، وهنا نقف على افتراضٍ مُضمّرٍ خطيرٍ بحيث يُشكل الأرضية التي بنى عليها "كانط"

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المدرك

فلسفته ألا وهو الاعتقاد بأنّ العالم الخارجي فضاء من الفوضى من دون تنظيم ولا نظام ولا ترتيبٍ وأنّ العقل الانساني عبر قوالبه هو مَنْ يعيد ترتيبه وتنظيمه وإضفاء المعنى عليه، فالواقع قبل تمثّل وإدراك الذات له هو من دون معنى ، فالذات في نظر " كانط " لامتلاكها أدوات الوعي والفهم والتفسير تنتقي المعطيات الحسية من الواقع كما تشاء من دون إكراهات ولا إلزامات ولا حتميات وتعيد ترتيبها وتنظيمها وإضفاء المعاني عليها ، فالإدراك يُسمي هنا مع كانط عملية ذاتية محضة تقوم على مصدرين أساسيين هما العقل والحواس في تكامل وتناغم ذاتي وواعٍ ، فالإدراك يرجع إذن للعوامل الذاتية المرتبطة بالذات المدركة والعارفة ، والموضوع مجرد تابع ومفعولٍ به لا أثر له في عملية الإدراك.

لا شك أنّ العمل الجبار الذي اضطلع به " كانط " في تبيان حدود وامكانات المعرفة كان لها الأثر الكبير في كل الأعمال الفكرية والفلسفات التي جاءت بعد ذلك ، فكانط اجترح بفلسفته النقدية مساحة واسعة من المساحات المعتمدة التي لم يسبق التفكير فيها ، وطرح من الأسئلة ما لم يُسبق لها وأثار الكثير من الاشكالات والقضايا الفكرية والمعرفية ، لكن كل هذا لا يمنعنا من القول بأنّ " كانط " بقي متمحورًا حول الذات ومنحازًا لها ضاربًا الصفح عن الواقع وموضوعاته ، الأمر الذي جعل الفلسفة تدخل في أزمة حقيقية بعد "كانط".

فالعمل الذي قام به " كانط " جعل كل مَنْ أتى بعده يتهيب خوض غمار مشكلة المعرفة ، بحيث أشاع نوعًا من الرّهَاب لدى الفلاسفة والمفكرين اللاحقين ، لذا انصرف أغلب الفلاسفة بعد " كانط " لخوض قضايا أخرى لا تُمتُّ بصلةٍ لهذا النوع من القضايا والاشكالات ، بل إنّ البعض رأى أنّ " كانط " أنهى عبر أعماله النقدية اشكالية مصدر المعرفة وطبيعتها ، هذا الأمر استمر إلى نهاية القرن التاسع عشر بحيث لم نَرِ فلسفة جادة تُعارض ما انتهى إليه " كانط " لكن مع بداية القرن العشرين بدأت تظهر ارهاصات وبوادر ومؤشرات لاتجاهات فكرية

تتصف بالشجاعة والجرأة على النقد والمساءلة وإعادة القراءة والتأويل لكل الفلسفات السابقة وبذات فلسفة "كانط"، هذه الأفكار والاتجاهات استمدت شجاعتها وجرأتها من الفتوحات العلمية في مجال العلوم الانسانية والاجتماعية ولعلّ أبرز مدرسة كان لها الأثر الكبير في القضايا المتعلقة بالمعرفة والادراك هي مدرسة "الجشطلت"، ولعلّ أهم انجاز يُحسب لها، هو تبيينها لأهمية ودور الموضوع في عملية الادراك، فالادراك كما جاء عبر أبجديات هذه المدرسة مرتبط بالموضوع المُدرَك أكثر من ارتباطه بالذات المُدرَكة.

6. الجشطلت وإعادة الاعتبار للموضوع المُدرَك: ظهرت هذه النظرية في ألمانيا ويُعتبر "ماكس فرتيمر" (1880_1943) مؤسس الجشطلت ثم انظم إليه ولفنج كوهلر (1887_1967) وكيرت كوفكا (1886_1941)، وكيرت ليفن (1891_1947) بحيث نشروا العديد من الأبحاث العلمية المتعلقة بمجال التعلم والادراك، وتعني كلمة الجشطلت: الشكل أو الصيغة، وترجع هذه التسمية إلى الفكرة التي تقوم عليها هذه المدرسة حيث اعتبرت أنّ حقيقة المُدرَكات الحسية تكمن في الشكل والبناء العام وليس في العناصر والأجزاء، وحقيقة هذه الفكرة إنّما جاءت في سياق ثورة زعماء هذه المدرسة ونقدتهم لما شاع في علم النفس آنذاك وبالأخص ثورتهم على المدرسة الارتباطية وفكرتها عن الارتباط، بحيث اعتبرت نظرية الجشطلت أنّ التعلم أو الادراك ليس مُجرد ارتباط بين عناصر لم تكن مترابطة وإنّما هو الادراك الكامل للعلاقات الداخلية للشيء المُراد ادراكه، وجوهر الادراك والتعلم في نظرهم هو التعرف على القوانين الداخلية التي تحكم الموضوع المُراد إدراكه، وهنا يظهر بشكل واضح أنّ نظرية الجشطلت تنطلق من فكرة مناقضة ومخالفة تمامًا لكل الفلسفات والمذاهب الكلاسيكية وبالأخص فلسفة "كانط" التي كانت تفترض أنّ العالم الخارجي هو عبارة عن مجالٍ من الفوضى لا نظام له ولا قواعد لا قوانين تنظمه، وأنّ الذات وبالأحرى العقل

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المُدرَك

هو الذي يعيد ترتيبه وتنظيمه وتفسيره وتأويله، هذه النظرة وهذا المبدأ والافتراض الذي أسس عليه كانط كل أعماله وأفكاره قد رفضه الجشطالت جملة وتفصيلا بحيث اعتبرت أنّ العالم الخارجي فيه من التنظيم والترتيب والنظام ما يجعل شكل الموضوعات وبنائها العام هي التي تحدد درجة الإدراك.

فالعالم الخارجي يخضع لمجموعة من العوامل والقوانين اطلقوا عليها اسم " قوانين تنظيم المجال الإدراكي " ، وهنا تصبح الصيغ الخارجية هي التي تفرض قوانينها علينا ، وتؤثر على إدراكنا ، فتحد من ذاكرتنا وقدرتنا العقلية على التأويل ، والإدراك عند الجشطالت يمر لدى الجميع بثلاث مراحل : إدراك كلي بحيث يأخذ المُدرَك نظرة إجمالية عن الموضوع المُدرَك ، يليه إدراك تحليلي ، بحيث نُدرَك أجزاء الموضوع ومفرداته وأجزائه منفصلة عن إطارها الكلي والعام ، يليه إدراكٌ تركيبى ، وذلك باعادة تركيب الأجزاء في كلّ منتظمٍ ، بحيث أنّ معاني الأجزاء تتحدد تبعاً للكل أو الشكل والصيغة العامة ، فالكل هو الذي يُحدّد معنى الجزء وليس العكس ، فالعناصر الجزئية تكون مختلفة تبعاً للشكل الذي تنتهي إليه ، إنّ الأقراص الصفراء على أرضية سوداء ليست مشابهة من ناحية الإدراك للأقراص الصفراء على أرضية بيضاء ، والجواهر أو السلاسل الذهبية تُغيّر قليلاً من لونها حسب ما نضعها فوق سطحٍ أزرقٍ سماويّ أو أزرقٍ داكنٍ أو رُمانيّ ، واللون الأبيض على سطحٍ أسودٍ أكثر بروزاً من اللون الأخضر أو الأحمر ، وإذا نظرنا إلى شخصٍ يلبس لباساً أبيض فإنه يبدو أكثر سمناً مما لو كان يلبس لباساً أسود ، لأنّ خيال اللون الأسود تنكّش فيه الأشعة ويبدو الأبيض أكثر انتشاراً منه ، ولا أحد يجهل كيف أنّ مشط الشعر أو تصفيفه يُمدّد أو يُقصّر الوجه (حسن، 2017، صفحة 15).

إنّ المتأمل للعالم الخارجي على ضوء ما انتهت إليه مدرسة الجشطالت يلحظ بالفعل أنّ التصميم الذي هو عليه العالم من حولنا يبدو وكأنّه صُمِّم أو تمّ

هندسته من أجل إدراكه ، وكأنَّ الشكل الذي يبدو عليه عملٌ مقصودٌ لغاية واحدة وهي تسهيل وتيسير إدراكه ، ولنأخذ عامل التباين أو كما يطلق عليه عامل الشكل والأرضية أو عامل الاختلاف ، فلولا وجود هذا الاختلاف والتباين بين مُفردات الوجود والأشياء التي تُحيط بنا من كل جانب ماذا كان يُمكن للحواس أو العقل أن يعملّا؟! فحين تقف مثلا عند محلِّ لبيع الفواكه والخضر لا شك أنَّ كل شيءٍ سيبدو واضحا وأنَّ عملية التمييز والتفريق بين أنواع الفواكه والخضر سيتم بسهولة ويُسرٍ تامين وما هذا إلا للتباين الشديد في الشكل والحجم واللون وحتى في الطعم ، فالعالم إذن ليس كما افترض " كانط " أنَّه بلا نظام ولا قوانين بل رُكَّامٌ من الأشياء على غير نظامٍ وأنَّ الذات هي التي تقوم بتنظيم معطياته ومفرداته وإضفاء المعنى عليها ، بل العالم أكثر تنظيما وترتيباً مما نتصور وعملية الادراك تقوم في جزءٍ كبيرٍ منها على القوانين التي تُحيط بالموضوعات ، وأنَّ الذات تكون في غالب الأحيان هي المتلقي السلبي أمام فاعلية الموضوعات التي نتعرض لها ، فعملية الاحساس مثلا هي في حقيقتها وجوهرها مجرد انتباهٍ للموضوعات الخارجية ، وعملية الانتباه لا دخل في الغالب للذات فيها فنحن لا ننتبه في الغالب لما نرغب فيه دائماً ، بل إنَّ الموضوعات هي التي تثير انتباهنا في الغالب لما تنطوي عليه من مثيرات تشدنا إليها رغماً عنَّا ومن رغبةٍ منَّا.

هذه الحقائق التي قررتها مدرسة الجشطت لم تبقى حبيسة بطون الكتب بل صارت لها تطبيقات في مجالات عديدة أبرزها في مجال التربية والتعليم وفي ميادين الدعاية والاشهار وفي مجالات الفن والجمال ، وهو ما أكسبها قوة وصلابة ومشروعية مُقابل رُهاب الأفكار الفلسفية بمختلف نزعاتها وتوجهاتها التي ما فتئت تُمارس الوصاية والحجب والتغيب لكل ما يُناقضها أو يعارضها ويُقارعها ، وهو ما فتح المجال لمزيدٍ من الحفريات وإعادة القراءة لكل المنجز البشري في كل الأحقاب والعصور ، فمع الجشطت لم تُعد الذات هي المركز وهي المحور ، بل لم تعد

الإدراك بين نشاط الذات وتأثير الموضوع المدرك

عملية الإدراك عملية انتقائية واعية وإرادية ، فقد تراجعت الذات وتركزت مكانها للموضوع فهو الذي يقرر ماهيته وما يكون عليه ، وهو الذي يفرض نفسه فرضاً على الذات فتتقاد الذات له طائعة وراضية ، الأمر الذي يدعو لإعادة مراجعة الكثير من المفاهيم المتعلقة بالإنسان من قبيل حقيقة الحرية الانسانية ، والوعي والارادة عند البشر ، فلا مناص فيما يتعلق بقضايا الفكر والمعرفة من إعادة عمل حفريات والنبش وتجديد السؤال وتنويع المقاربات وإعادة تأويل وتفسير التراث الفكري للإنسان من أجل توسيع الرؤية وفتح الآفاق الجديدة واجتراح المناطق المُعْتَمة ومساحات الظل.

7. الخاتمة

وفي الأخير يمكننا القول أنّ موضوعاً مثل الإدراك لم يعد من اختصاص الفلسفة فقط ، بل صار من صميم موضوعات الكثير من العلوم الانسانية على غرار علم النفس ، وهو الأمر الذي جعلنا على وعيٍ أكثر بطبيعة الادراك والشروط المتحكمة فيه، وذلك بفضل الدراسات والأبحاث التي أُجريت حوله في مختلف التخصصات والعلوم ، لكن هذا لا يُغني عن دراسة الفلسفة للإدراك ، إذ مهما يكن التقدم في فهم الادراك الذي جاء به العلوم، فإنّ الادراك يبقى بالنسبة للفلاسفة محوراً أساسياً ، بالنسبة لأعمق مشاكل الاستيمولوجيا والميتافيزيقا منذ القدم هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإنّ المنظور الفلسفي لمثل هذه القضايا يبقى يمتاز عن غيره من المنظورات ذات الطابع العلمي بكونه ذو طابعٍ شمولي وعميق يقصد إلى الأشكلة أكثر مما يروم المعرفة والتفسير ، وهذا هو الجانب الفريد في الفلسفة ، ولعلّ هذا المقصد هو أهم المقاصد والأهداف التي ترمي إليها هذه الورقة البحثية ، فلم يكن هدفنا من البداية تقديم الاجابات الواضحة والفاصلة ولا حتى الإدلاء بوجهات نظرنا المتواضعة ، بقدر ما هدفنا إلى إثارة

الأذهان وتحريك المياه الراكدة وتوجيه النظر وطرح المزيد من الأسئلة والدفع بها إلى أقصاها فإن تحقق ذلك فذاك ما كنا نصبو إليه.

8. المراجع:

- برتراند راسل. (2018). *تاريخ الفلسفة الغربية* (المجلد 3). تونس، تونس: دار التنوير للطباعة والنشر.
- جمال الدين بوقلي حسن. (2017). *قضايا فلسفية*. تلمسان، الجزائر: النشر الجامعي الجديد.
- جوستاين غاردر. (ب.س). *عالم صوفي* (الإصدار 2). عمان، الاردن: دار المنى.
- زكي نجيب محمود. (2017). *نظرية المعرفة*. القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي.
- السوفييت جماعة من الاساتذة. (1979). *موجز تاريخ الفلسفة* (الإصدار 3). (توفيق ابراهيم سلوم، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الفارابي.
- العلوي رشيد. (03 03، 2016). *ديكارت والنزعة العقلانية الساعية الى البساطة والوضوح*. تاريخ الاسترداد 05 29، 2023، من: <http://aawsat.com>
- كرين برنتن. (2017). *افكار ورجال قصة الفكر الغربي*. (محمود محمود، المترجمون) القاهرة، مصر: مؤسسة هنداوي.
- ويل ديورانت. (1988). *قصة الفلسفة من افلاطون الى جون ديوي* (الإصدار 6). بيروت، لبنان: مكتبة المعارف.